



هل الوجودية فلسفة في الأخلاق؟ Is existentialism a philosophy of ethics?

هوارى حمادي*

جامعة معسكر (الجزائر).

البريد الإلكتروني المهني: houari.hammadi@univ-mascara.dz

تاريخ النشر

2024/12/01

تاريخ القبول

2024/09/14

تاريخ الإيداع

2024/06/08

الملخص: يهدف هذا البحث الى بيان أن الوجودية ليست فلسفة مناقضة للأخلاق، ولكن نظرة جديدة لها، تقوم على قيم الإنسان المعاصر، إنسان التقنية والتقدم العلمي والتكنولوجي، وباستخدام المنهج التحليلي يتبين لنا أن تحليل رؤى ومواقف فلاسفة الوجودية يتبين أن هاجسهم أخلاقي وإن كانت فلسفتهم عبثية ومتمردة. وهذا ما تبينه النصوص الكبرى لسارتر وفلاسفة الوجودية ككل. فعندما نقرأ موقف سارتر من الاستعمار في الجزائر، يتبين لنا أن أهم نتائج قراءة أفكاره، هي الدفاع عن الحرية و تأسيس المسؤولية، بهدف البحث عن السعادة الكونية في ظل اعتبار الإنسان محور العالم والكون، يصنع ماهيته وقيمه بنفسه وكما يريد، وبالتالي نتوخى من خلال طرح هذا الموضوع، بيان أن الإنسان بمفهومه الفردي والكوني، حر ومسؤول عن ما هو سائد من إفرازات ومخلفات التقنية والحروب يصنع مصيره بنفسه ومع الآخر في الوقت نفسه.

الكلمات المفتاحية: الوجود ؛ الحرية ؛ الالتزام ؛ الإنسان ؛ المصير

Abstract: This research aims to show that existentialism is not a philosophy that contradicts morality, but a new view of it, based on the values of contemporary man, the man of technology and scientific and technological progress. Using the analytical method, it becomes clear to us that analyzing the visions and positions of existentialist philosophers shows that their obsession is moral, even if their philosophy is absurd and rebellious. This is what the major texts of Sartre and existentialist philosophers as a whole show. When we read Sartre's position on colonialism in Algeria, it becomes clear to us that the most important results of reading his thoughts are the defense of freedom and the establishment of responsibility, with the aim of searching for universal happiness in light of considering that man is the center of the world and the universe, creating his own essence and values by himself and as he wants, and therefore we aim to propose This

* المؤلف المرسل

topic is a statement that man, in his individual and universal sense, is free and responsible for the prevailing secretions and waste of technology and wars, creating his own destiny with himself and with others at the same time.

Keywords: existence; Freedom ; Commitment ; Human; Destiny

مقدمة:

إذا كان الفكر الفلسفي في شكله العام لا ينفصل عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية الموجودة في مجتمع معين، فلاشك أن المستجدات التي عرفها وعاشها الإنسان في الفترة الراهنة على مختلف الأصعدة أثرت بصورة كبرى على ميلاد نمط متميز من التفكير الفلسفي، يختلف عن شكله الكلاسيكي في عدة خصوصيات أهمها الثورة على العقلانية المتعالية والاتجاه نحو الإنسان الذي ظل مغيبا لفترة طويلة لحساب البحث في مسائل أصل الوجود وعلاقة الفلسفة بالدين والعلم وغير ذلك من المسائل التي تهمل الوجود الفعلي للإنسان ومشاكله.

ولكن مع الظروف الجديدة الناتجة عن التطور العلمي والتقني السائدة في المائة عام الأخيرة تبلورت تيارات فلسفية معاصرة تلح على الاهتمام بالإنسان كمحور للتفكير، وفي هذه الفترة ما يثير اهتمامنا أكثر هو مسألة الأخلاق ولاسيما إن كانت هذه الأخيرة ترتبط بعلم معياري يهتم بما يجب أن يكون عليه السلوك لا يمكن أن ينفصل عن الميتافيزيقا ومعطيات الدين التي تنتقدها التيارات الفلسفية المعاصرة، هذا الاعتبار يدفعنا إلى التساؤل هل انتهى السؤال عن الأخلاق في الفترة المعاصرة وسيظل حakra على الفكر الكلاسيكي أم أنه أصبح سؤالا ملحا لابد أن يفهم في شكل جديد يتناسب مع المستجدات الطارئة في الفترة الراهنة؟

إن البحث في هذا الإشكال قد يقودنا إلى أول وهلة إلى التسليم بغيب سؤال الأخلاق في الفكر الفلسفي المعاصر من منطلق ظهور تيارات تتمرد على الأفكار المتعالية وعالم ما ينبغي أن يكون كالبراغماتية والوجودية، ولكن تتبع الأحداث التي عرفها الإنسان في الفترة الراهنة، حيث عاش أحداثا خطيرة في القرن العشرين، لعل أهمها الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما ترتب عنهما من دمار وخراب وأزمات متعددة الأشكال وقلق وخوف وموت

وغير ذلك من الظواهر التي كانت ولا تزال تؤرق حياة الإنسان وتهدها في مختلف اللحظات والأوقات، حسب ما تولد عنها من انعكاسات ونتائج سلبية على وجود الإنسان الشامل تجعلنا نراجع ذلك الحكم ونذكر أن سؤال الأخلاق أصبح يطرح نفسه بإلحاح أكثر من أي وقت مضى لكن في ثوب جديد يواكب المستجدات على مستوى الواقع من جهة كالأحداث التي أشرنا إليها سابقا، وعلى مستوى الفكر الفلسفي بظهور مذاهب ثائرة على الميتافيزيقا والمعقول والمجرد من جهة أخرى.

حسب هذين المستويين ظهرت فلسفات جديدة تنتقد الفكر الكلاسيكي نقدا لاذعا في إهماله للإنسان الذي يصبح المحور الذي تدور حوله مختلف قضايا بما فيها مسائل الأخلاق، فقد ظلت مختلف التيارات تدرسه كماهية مجردة وتهمل مشاكله و وجوده الذاتي المشخص لفترة طويلة، وهو ما جعلها عديمة الجدوى في فهم ومعالجة التي يتخبط فيها الإنسان في مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية والتي أصبحت تؤرق بل وتهدد حياة الإنسان باستمرار، وهنا أصبح سؤال الأخلاق في الفكر الفلسفي المعاصر ثورة على الميتافيزيقا والمجرد والمعقول، ويرتبط بصميم حياة الإنسان ومشاكله ووجوده الذاتي المشخص.

وقبل أن نشير إلى هذا السؤال بوضوح يجدر بنا الإشارة إلى أننا في موضوعنا سنحاول فهم سؤال الأخلاق في أحد التيارات الفلسفية المعاصرة ألا هو الفلسفة الوجودية وليس الفكر الفلسفي المعاصر ككل، وهذه الفلسفة التي تعكس ملامح جديدة لإنسان القرن العشرين على المستوى الأخلاقي على وجه الخصوص لعل أهمها التمرد على نظام القيم والدين وكل ما من شأنه أن يمنع الإنسان من حياة وجوده، وتعبير عن منطلقات مغايرة إن لم نقل مناقضة لما سبقها من فلسفات، وذلك بإلحاحها على ضرورة الاهتمام بالإنسان ككائن متميز عن الأشياء الأخرى في ميادين مختلفة ومتعددة، لعل أهمها هي أنه كائن يحيا الوجود، وليس حيوانا عاقلا أو ناطقا أو اجتماعيا أو متدينا كما تبلور في الفلسفات القديمة

مع اليونان وما لحقها من فلسفات وسيطية وحديثة التي ظلت تهتم بالمفهوم المجرد للإنسان، وتهمل كونه كائناً متفاعلاً مع الحياة قبل كل شيء، فالفلسفات السابقة للوجودية ظلت تتجاهل النظر إلى الإنسان كديناميكية وجودية وكائن يسأل باستمرار عن معنى وجوده ومصيره في هذا الوجود.

وعلى الرغم من تبلور نمط من الفلسفات يدعو إلى الانكباب على الذات كمركز لفهم الوجود، انطلاقاً من سقراط ومقولته المشهورة أعرف نفسك بنفسك، ومع الرواقيين الذين لم يضعوا خطأ فاصلاً بين الوجود الإنساني والوجود الإلهي، وعند المتصوفة في دعوتهم إلى الاتحاد والحلول والعيش في الحضرة الإلهية والعشق الإلهي والفناء في الله وغير ذلك من أشكال العلاقة التي تظهر فيها مركزية الإنسان في الوجود، حسب مقولة من عرف نفسه فقد عرف ربه، فهذه الفلسفات والتصورات قد تعبر عن وحدة وجودية بين الخالق والمخلوقات، والتي يمكن القول باختصار أنها تجعل الإنسان أساس الوجود وجوهره لا يفهمه أو يتأمله كما كان سائد في الفلسفات المثالية والعقلية بل يعيشه و يحياه في تجربة خاصة ذات طابع وجداني وانفعالي تتحرر إن لم نقل تتمرد على ما هو عقلي أو مجرد في كونه هروباً من الوجود وتجاهل له ظل يفرض فلسفات متعالية لأبد من تجاوزها والثورة عليها، إلا أنها هذه التيارات السالفة الذكر قد تكون بذوراً أولى لفلسفات وجودية لا يمكن أن ترقى إلى تأسيس تيار فسفي وجودي قائم بذاته كما تحدد في الفترة المعاصرة والذي يقوم على دعوة الإنسان إلى أن يعيش وجوده الذاتي المتميز عن الموجودات الأخرى ككائن يسبق وجوده ماهيته و يطالب بأن يحيا الوجود وفق تجربة خاصة تعبر عن كل أبعاد حياته الماضي والحاضر والمستقبل، وهذه التجربة بإمكانها أن تنتشل من هول المأساة التي أصبح يعيشها في الفترة الراهنة، والتي تظهر في القلق غير المحدود، و الخوف الدائم من المصير، وتمارس وفق مبادئ الحرية المطلقة والوعي بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه في هذا الوجود.

في ظل هذه التصورات الجديدة التي طرحتها الوجودية والتي مهما بدت غامضة أو مبهمة فإنها وثيقة الصلة بالواقع، وهي ما تدفعنا إلى أن نطرح سؤالاً جوهرياً في مجال الأخلاق وهو: هل هناك نهاية للأخلاق أو إعدام لها في ظل الفكر الوجودي؟

قد يبدو أنه من السهولة الفصل في هذا الإشكال والقول بنهاية الأخلاق في التيار الوجودي، انطلاقاً من موقفه من الدين خاصة وبناءاً على الوصف الذي ينعته بالإلحاد والعبثية، لكن هذا الحكم يستحق المراجعة، إذا حاولنا فهم سؤال الأخلاق في الوجودية في ظل طرح جديد يتماشى مع الأحداث والوقائع الطارئة في الفترة المعاصرة بالدرجة الأولى، وبناءاً على الإنسان الذي يصنع ماهيته وفق حريته المطلقة و مسؤولية مطلقة والتزام عام نحو الوجود لا يستطيع الإنسان التهرب منه، فجوهر الفكر الوجودي تأسيس جديد للقيم يتماشى وتحديات الراهن آنذاك، وينقد النظرة الميتافيزيقية للأخلاق التي عرفت نقداً لازعاً في القرن العشرين بإشراف هذا التيار الجديد المتمرد على كل ما هو خارج نطاق الإنسان في تحديد القيم، فسؤال الأخلاق في المذهب الوجودي يعتبر انشغالا مركزياً لكل باحث الوجودية، ويمكن أن نطرحه بناءً على الاعتبارات السابقة في الشكل التالي: هل التيار الوجودي يعبر عن نهاية الأخلاق ما دام همه الثورة على النظرة الميتافيزيقية المجردة وعالم ما يجب أن يكون الذي كانت وما تزال تقوم عليه، أم أنه يعبر عن نمط جديد من الأخلاق تعبر عن وجود الإنسان المشبع بثقل الراهن؟

في إطار هذا الإشكال سنسعى إلى البحث في سؤال الأخلاق في المذهب الوجودي، كأحد المذاهب الكبرى التي ظهرت في الفكر الفلسفي المعاصر إلى جانب التيارات البراغماتية والبنوية والتفكيكية، والتي تظل تتميز عنها في كونها جعلت سؤال الأخلاق جوهرياً في فهمها للوجود الإنساني الشامل، إذ تقدم رؤية نقدية شاملة لجملة التصورات القائمة حول الأخلاق، والتي تدور في مجملها حول تصورهما المعياري المجرد الذي يفهمه بها رجال الدين والفلاسفة وحتى الناس العاديين، وذلك في كونها علم يهتم بما يجب عليه أن

يكون كان ولا يزال يتجاهل ما هو كائن وما ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، وبهذا فمسائل الأخلاق في الوجودية لا زالت من القضايا التي تثير الانتباه وتستحق كل الاهتمام، لفهم الكثير من قضايا الإنسان اليوم في مجالاتها المتعددة.

1- مفهوم الوجودية:

يبدأ فهم سؤال الأخلاق في التيار الوجودي بالبحث في مفهوم الوجودية ذاتها، فهي من أكثر الفلسفات شهرة في الفترة المعاصرة، التي من الصعب تحديد تصور واضح ودقيق لها، فأول سؤال يتبادر إلى أذهاننا هو: هل الوجودية فلسفة كباقي الفلسفات؟ إن البحث عن إجابة على هذا السؤال هو منطلق لفهم مختلف مسائل الفكر الوجودي وعلى رأسها مسألة الأخلاق، لأننا نستطيع القول منذ البداية أن سؤال الأخلاق في الوجودية ينبع من طبيعة هذا المذهب وخصوصياته في النظر إلى مشاكل الإنسان و يمكن أن نطرحه بوضوح في قولنا: ما معنى الوجودية؟ ولماذا تعبر عن فلسفة متميزة؟ و ما موقفها من قضايا الأخلاق؟

الوجودية مذهب فلسفي معاصر مشتق من لفظ "الوجود"؛ وتطلق على جملة المذاهب التي ترى أن الإنسان هو الوحيد الموجود، وأن كلمة الوجود لا تنطبق إلا عليه، أما غيره فهو كائن... وأن وجوده سابق لماهيته" (الحفني ع، 2000: 935) هذا التصور يعكس اتجاهها فلسفيا جديدا هاجسه المركزي فهم وجود الإنسان في الفترة المعاصرة، تسعى لتجاوز التصورات الكلاسيكية التي أهتمت بالوجود على حساب تغييب الموجود ألا وهو الإنسان.

يظهر تميز الفلسفة الوجودية في كونها، ارتبطت بأعمال أدبية في روايات ومسرحيات وقصائد الشعرية كما تجسدت في مقالات صحفية، حمل رايته شخصيات فلسفية وأدباء من بينهم الأب الروحي للوجودية سورين كيركجورد، والرواد الآخرين من أمثال كارل ياسبرز وجبريال مارسيل، ومارتن هيدجر، وجون بول سارتر، والبير كامو... والتي تمتاز بأنها تعبر عن مذهب جديد يعكس سمات ومميزات الإنسان في القرن العشرين الباحث عن الحرية والتمرد على نظام الدين والطبيعة والأشياء وسيطرة العلم وهيمنة الآلة التي أفقدت

الإنسان سعادته وطمأنينته التي أصبحت مطلبه الجوهري والنهائي الذي بحثت فيه هذه الفلسفة المتميزة في معناها وخصائصها.

تتميز الوجودية كذلك بارتباطها بنوعين: تيار مؤمن ويمثله الأب الروحي لهذا المذهب وهو كيركيغارد وكارل ياسبرز، وجابريال مارسيل، وهو تيار يتجه في حياة الوجود نحو الله تعالى، وتيار آخر ملحد يمثله هيدجر وجون بول سارتر لا تهمة العلاقة مع الدين والإله ولكن ما يهمه صنع الماهية بالإرادة وحرية تقرير المصير، ومما لاشك أن المسائل الأخلاقية تتفق بين التيارين في كونها سعي نحو الطمأنينة وحياة الوجود عن طريق الشعور المتدفق بعيدا عن التأمل المجرد ويختلفان في المنهج المتبع في بلوغ ذلك بين الإيمان والإلحاد والغاية النهائية المترتبة عن ذلك الوصول إلى الله أو إلى العدم.

ففي ظل الإفرازات والمخلفات الناتجة عن الحربين العلميتين أثناء القرن العشرين التي راح ضحيتها ملايين البشر، وانتشر شعور بالقلق والخوف من المصير والموت والخطر المحقق بالوجود، أصبح هاجس الفلاسفة الوجوديون في مجال الأخلاق لا يختلف عن هاجس الإنسان في العصر الهلنستي وهو البحث عن الشعور بالطمأنينة والسكينة ولكن ليس بمفهومها السلبي أو التسليم للقدر والضرورة ولكن في حياة الوجود دون أي قيود، وبالتالي يمكن القول باختصار أن سؤال الأخلاق في الوجودية هو : كيف يحقق الإنسان الطمأنينة ويعدم كل المؤثرات التي تمنعه من أن يحيا الوجود بحريته المطلقة التي لا تحددها حدود؟

2- الأسس المحددة لسؤال الأخلاق في الوجودية:

إن فهم سؤال الأخلاق في الوجودية ينطلق من المقومات الكبرى التي يبني عليها هذا التيار، وذلك باعتباره يبني على جملة المسلمات الكبرى لممارسة التجربة الوجودية في الحياة، والتي يمكن أن نجعل غايتها الأخلاقية إنقاذ الإنسان بالمفهوم الخاص والعام، فما السبل التي تنتهج في ذلك، وما السبل في التخلص من القلق والخوف؟ يمكن أن نفهم هذا الاستفهام بأسس الوجودية وهي:

2-1- إدراك حقيقة الوجود الإنساني المتميز: في كتاب -الوجودية مذهب إنساني - انطلاقاً من ربطها بحياة الإنسان، يقول: "أفهم الفلسفة الوجودية كمذهب يجعل الحياة الإنسانية ممكنة" (سارتر ج ، 1964 : 7) والتي تدرك في إطار تميز الإنسان عن الموجودات الأخرى باعتباره وجود لذاته وليس وجود في ذاته، يعيش الحياة بأعماقها دون أي قيد أو شرط، كما يحاول سارتر الرد على التصورات المختلفة التي تعزل الإنسان داخل ذاته في إطار الكوجيتو -في إطار الذاتية التي تجعل الإنسان يفقد قيمة التضامن مع الآخرين وينعزل داخل ذاته "ومن ثمة لا يستطيع معها أن يستعيد تضامنه مع الآخرين الذين يوجدون خارج ذاته" (سارتر ج ، 1964 : 6)، هنا تظهر قيمة الوجود الإنساني عند الوجوديين في العلاقة التي تدركها الأنا في علاقتها مع الآخر، وبالتالي يكون وجود الإنسان موجوداً متميزاً في إطار الوجود الإنساني الكلي.

2-2- نقد الوجوديين للتأمل العقلي المجرد: يعتبر هجوم الوجوديين على الفلسفات العقلانية والمثالية نقطة الانطلاق في فهم نظرتهم لمسائل الأخلاق، لأنها أساس الميتافيزيقا الغربية التي غابت وتناست الوجود الإنساني لفترة طويلة، إذ ينتقد سارتر الفلسفات المتعالية والتي تمثل التيارات المثالية والعقلية، ويبين أن الذات التي تبنى عليها الفلسفة الوجودية، ذات حضور مادي وليس صوري، والمشكل الأساسي للفلسفة ليس أصل الوجود والقراءة الميتافيزيقية للوجود قراءة متعالية ومجردة تمثل ميتافيزيقا الغياب كما يرى هيدغر، وبالتالي يؤسس الوجوديون لقراءة نقدية للتراث الغربي، التي يرتبط سؤال الأخلاق فيها بالقيمة الحقيقية في إدراك الإنسان لوجوده الحقيقي وليس في وجود متعال ومفروض، و من هذا السؤال يكون منهج الوجوديين مبني على التعامل مع الواقع من خلال تجربة القلق أو " التجربة الذاتية المباشرة والمعاشة، وهي تجربة حية تنبض بالحياة، وطالما أنها تجربة ذاتية فهي تختلف من فيلسوف إلى آخر " (مصطفى إبراهيم، إ 2000: 242). هنا ندرك رفض الوجوديين للمنهج الجدلي في بلوغ القيم تصور المتعالي لها كما ورد عند أفلاطون لحساب الدعوة إلى التجربة

الشعورية الحية والعاطفة المتدفقة عن طريق الذات الممتلئة والمفعمة بالتوترات والاضطرابات، والتي تمارس حياة الوجود الفعلي بعيدا عن تأمله المجرد وبواسطة الفعل الديناميكي الحر.

2-3- الإنسان يصنع ماهيته بذاته: طبقا لمقولة الوجوديين، وجود الإنسان سابق لماهيته، والتي تعبر ثورة وانقلابا على كل الفلسفات التقليدية التي أقرت بأسبقية الماهية على الوجود، فإن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي تكتمل ماهيته عند نهاية حياته، وذلك لأنه مشروعا للموت، بهذا التصور تنتقد الوجودية فكرة الماهيات المجردة التي تقف وراء الموجودات كما وجدت في الفلسفات العقلية والمثالية، ومهما يضيفي هذا المبدأ الصبغة الإلحادية على التيار الوجودي عندما يجعل الإنسان غير خاضع لإرادة إلهية مسبقة تتصور ماهيته وتشكلها، فإنه مبتغى رائد هذا الموقف من خلال هذا المبدأ "هو إنقاذ الحرية من الجبرية، فيصف الوجودية بأنها مذهب تفاؤل لأنها تضع مصير الإنسان بين يديه، فتجعل الحياة الإنسانية ممكنة" (مصطفى إبراهيم، إ 2000: 242)، بمعنى أن الهدف من القول بصناعة الإنسان لماهيته، هو انتشاله من قلق المصير الذي يهدد وجوده.

2-4- الحرية المطلقة في إبداع القيم: بناء على المبدأ السالف الذكر عند الوجوديين، فإن الإنسان حر حرية مطلقة لا تحدها حدود، وهو من يختار مصيره، وقيمه كما يشاء، وذلك لأن "هدف الوجودية حمل المرء على البحث عن وجوده الحقيقي، بطريقة تتفق وفهمه للحياة التي يريد أن يعيشها" (محمد سلمان ح 1998: 94)، فهو يختار قيمه بذاته لأنه افتقد أي ثقة في نظام أخلاقي بعينه، وفرضت عليه المستجدات إدراك وجوده الحقيقي الذي يتحقق إلا في ظل حياته الحرة، وحرية حياته، واختياره الذاتي المحض أساس كل ما هو أخلاقي، حيث يؤكد أب الوجودية كيركجور أن الحكمة الأخلاقية ترتبط باختيار الفرد لذاته وليس بمعرفة الفرد لذاته، ويرى أن الإنسان في وجوده يمر بثلاث مراحل، أولها المرحلة الجمالية التي يحيا فيها من أجل اللذة الحسية، ثانيها المرحلة الأخلاقية وهي التي يكون فيها الفرد قادرا على

اتخاذ القرار وممارسة الإرادة الحرة، ثالثها المرحلة الدينية " وتتسم هذه المرحلة باهتمام الذات بتحقيق سعادتها الأبدية وذلك من خلال اعتمادها المطلق على الله " (مبروك، أ، 2005: 129) هنا تنعكس أراء الوجودية المؤمنة التي تربط قرارات الفرد التي يتم تأكيدها من خلال الوعي بالخطيئة وتحقيق الإيمان، وتعبّر عن حياة وجودية متطورة المراحل تنتهي إلى بلوغ السعادة في الدين، أما في الوجودية الملحدة فيرى سارتر أن الحرية ترتبط بالواقع وبالمواقف التي يواجهها في هذا العالم، والتي قذف فيها ووجد فيها الإنسان منذ ولادته الأولى في عالم ليس من صنعه، عليه أن يواجهه الإنسان باستمرار، ويعدمه لحساب عالمه الداخلي، عالم القيم الحقيقية ، والتي يمكن القول باختصار أنها ترتبط بوجوده الذي يساوي حريته، والتي لا تتحقق في ظل إطلاقيتها دون أي قيد ديني أو اجتماعي أو غير ذلك.

2-5- الالتزام أهم القيم في الوجودية: يقول سارتر: "نحن لا نعرف الإنسان إلا بالنسبة إلى التزام ما، وإذن من السخف أن نلوم أنفسنا عن عدم مسؤوليتنا عن اختيارنا" (سارتر، 1964 : 55)، غذن يعتبر الالتزام أهم قيم الوجودية، يبين لنا أن التصور الوجودي للحرية لا يعتقد أنها حرية عمياء دون هدف وغاية، بل ترتبط بما هو أسمى ألا وهو الالتزام والذي يعنى عند الوجوديين الإخلاص والوفاء للوجود الخاص وعدم التنصل والتهرب من حياة الوجود لحساب التحليق في السماء أو العيش خارج الذات، ويتخذ الإلزام طابعا ذاتيا في البداية قبل أن يصبح التزاما نحو الآخرين لأن جوهره الحرية الخاصة أو بمعنى أوضح أن تلتزم هو أن لا تترك في ذاتك مكانا لشيء تتعدم فيه الحرية.

2-6- الشعور بالمسؤولية من الإنسان تجاه الإنسان والعالم: قد يتجاوز الالتزام الطابع الذاتي السالف الذكر حين يقترن بالتضحية، و"يخرج من الذات إلى الآخرين، رغم أنه يتم داخل الذات، فتصبح المسؤولية عن الفعل مسؤولية عن الذات وعن العالم كله" (مصطفى إبراهيم، إ 2000: 306) هنا يقودنا الالتزام إلى خارج الذات عن طريق المسؤولية نحو الآخرين، فإذا كان الالتزام من الإنسان وجود لذاته، ومطالب بأن يكون حرا بموجبه، فإنه

يطالب كذلك بالالتزام بمسؤولية ليس لها حدود نحو الآخرين ونحو العالم، فانطلاقاً من مقولة "الجحيم هم الآخرون" التي تقوم عليها الوجودية، ندرك أنها تجعل من الحرية ممارسة مشروطة بالمسؤولية، عن طريق ارتباطها بالآخر الذي يصبح حضوره في ذاتي جحيماً لي، "ما دام الشعور بالأنا لا يستطيع أن يمر إلا بشعور الآخر، وكأن هذا الشعور يبقيني أمام مرآتي الخاصة" (موروسير، 1978: 45).

2-7- قضايا التحرر: يمكن الإشارة في مجال الحديث عن مسألة القيم في المذهب الوجودي إلى دوره الفعال في طرح مسألة تحرر الشعوب المستعمرة والمضطهدة، فقد عاش سارتر ظاهرة لا أخلاقية وهي الاستعمار وواجهها بقلمه ومواقفه، ومن هنا كان على رأس الوجوديين في الدفاع عن حرية الشعوب وحقوق الإنسان وكرامة الشعوب، وهذا ما نجده في أحد كتب سارتر الموسوم بـ "مواقف مناهضة للاستعمار" الذي وظف فيه الكثير من المواقف الراضية للاستعمار بأشكاله المختلفة، وهنا استوقفنا هذا الموقف لسارتر الذي يقول فيه: "أما عن الضحايا فلا يعرفون في غالب الأحيان، إلا الصيحات والجراح والآلام وكانوا يعرضون علينا ساديين محبين للتعذيب منحنين على أشلاء اللحم، وما كان الفرق بيننا وبين هؤلاء الساديين؟ لاشيء، ما دمنا صامتين، كان استنكارنا بيدوا صادقا في أعيننا، ولكن هل كنا نستطيع الاحتفاظ باستنكارنا لو كنا عشنا هناك؟ وهل استحال استنكارنا اشمئزازا كونيا وحنوعا كئيبا، أما فيما يخصني فكان كم واجبي أم أقرأ وكنت أنشر أحيانا، وكنت أكره تلك القصص التي كانت تورطنا بدون شفقة والتي لم تكن تترك لنا أي أمل" (سارتر، 2007: 64)

من خلال هذا النص ندرك النقد اللاذع الذي يقدمه سارتر للاستعمار وجرائمه وحروبه، حيث يكن الكثير من الشفقة نحو ضحايا الحروب، ويتكلم على طريقة الروائي المتمرد والمحارب بقلمه، لكل أشكال الغطرسة الاستعمارية، بما فيها تلك التي قامت بها بلاده ضد الجزائر والتي كلفته السجن، يقول كذلك عن السجن المظلوم: "رغم كونه عريانا

ومرتجفا بردا ومربوطا بخشبة، لازالت سوداء ولزجة بالتقيؤات القديمة، يعيد كل هذه المكائد إلى حقيقتها الحقيرة، إنها تمثيلية هزيلة يلعب أدوارها الأغبياء" (سارتر، 2007: 64) ويشير هنا كذلك إلى إنسانيته المفرطة التي تعتبر جوهر فلسفته الأخلاقية.

3- كيف تكون الفلسفة الوجودية فلسفة للأخلاق؟

من خلال طرح مفهوم الوجودية ومبادئها، ندرك أنها تمثل فلسفة للأخلاق لا تختلف عن فلسفة العصر الهلنستي، تلك التي جعلت هاجسها البحث عن السعادة والطمأنينة، فهي استجابة لأحداث ومستجدات مأسوية إن صح التعبير، فقد بموجبها الإنسان كل شعور بالسعادة، وأصبح يعيش القلق والخوف الدائم، فهي نظرة ذاتية للأخلاق، ولكن هذا لا يعني أنها ترتبط بالذات المفكرة والتي تعمل طبقا لكوجيتو الأنا المفكرة التي تحقق وجودها من خلال التأمل المجرد والتفكير، وإنما الذات التي تحيا الوجود وفق تجربة وجدانية شعورية تدرك الحقيقة في أعماق ذاتها، إذ تعبير عن التجربة الذاتية بعيدا عن الأفكار والتصورات الذهنية ومختلف المفاهيم المجردة، لذلك فهي نظرة نقدية لمختلف المذاهب التي طرحت الأخلاق طرحا موضوعيا مستقلا عن الذات.

كما أنها مدرسة فلسفية معاصرة تظهر أخلاقيتها في نزعتها الإنسانية المفرطة حين تضع سعادة الإنسان مبتغاها الرئيسي، وإزالة قلقه الدائم هدفها الجوهرية، فالوجودية المؤمنة تؤكد أن السبيل الوحيد لإزالة القلق هو الإيمان بالله، أما الملحدة تؤكد على الحرية المطلقة فيما يقلق الإنسان، والوجودية تؤكد أن الحياة الأخلاقية تكون بتعالى الفرد من ذاته نحو الله في الوجودية المؤمنة، وتعالى الفرد نحو العدم في الوجودية الملحدة، وفي كلتا الحالتين هناك تجربة أخلاقية في الوجود تقوم على تعالى وسمو الإنسان، ومركزيته في الكون.

كما يبين بعض الباحثين في الفلسفة وعلى رأسهم –عبد الرحمن بدوي- أن الوجودية تقترب من التصوف، حيث حاول اكتشاف التصوف من منظور وجودي معتقدا أن هناك تقارب بين التصوف والوجودية يتجلى في القول بمحورية الوجود الذاتي وأسبقيته على الماهية

واعتبار الإنسان هو الوجود الحقيقي والتي تتشابه مع مقولة الإنسان الكامل وتقوم الوجودية عند بدوي على ما يلي: تفسير الوجود على أساس السمة الزمنية -الوقوف على التغيرات الحاصلة في الوجود- الوقوف على تاريخية الوجود- تفسير العدم من منظور التصور الانفصالي للوجود.

لكن رغم ما ذكر سالفاً، يمكن القول أن الوجودية تعبر عن مذهب اللذة والحس في الأخلاق، " فالوجودية ليست فلسفة إنسانية على الأقل في جانبها الملحد، بل هي فلسفة لا إنسانية. دعوة إلى الإلحاد... والبهيمية...، أن يطلق للإنسان لنفسه العنان..فتعمل فيه النفس الأمانة بالسوء عملها..فتضيع في الإنسان الدنيا بإغراقه في القلق... والوساوس... والمسؤولية... وأنه وحده في الحياة فلا شبيه له من البشر، ولا إله يهديه إلى سواء السبيل" (إبراهيم، 2000: 311) هنا ندرك أن الوجودية تعبر عن حرية مطلقة تتعارض مع مفهوم الإنسان ككائن متدين أو ميتافيزيقي، ولا تحمل أي أبعاد أخلاقية ولكن رغم هذا الموقف الذي قد ينطلق من الاتجاه الديني عند صاحبه فإن الوجودية نزعة إنسانية مفردة، كما يرى البعض أن الوجودية فلسفة للكآبة والتشاؤم لأنها تعبر عن قلق دائم وفكرة الخطيئة التي قامت عليها عند كيركجورد لا وجود لها لأن الله عفا عن آدم وتاب عنه، ولكن رغم ذلك فهي نزعة قوية توجهنا إلى الاهتمام بالإنسان الضائع في غياهب منتجات الفترة المعاصرة في مجال العلم والتقنية.

الخاتمة:

يمكن القول في الأخير أن الوجودية ليست فلسفة مناقضة للأخلاق، ولكن نظرة جديدة لها، تقوم على هواجس الإنسان المعاصر، إنسان التقنية والتقدم العلمي والتكنولوجي، وتكمن أخلاقيتها في محاولة انتشار الإنسان من برائن القلق والسيطرة والاستعباد من أي سلطة كانت، فهي فلسفة أخلاقية حسب مبدأي الحرية والالتزام، وحسب الغاية المنشودة منها وهي سعادة الإنسان في كونه هو الوجود بذاته ولا وجود غيره، ولكن رغم ذلك فإن أفكار الوجودية

في مجال الأخلاق تعبر عن واقع الإنسان الأوروبي بدرجة الأولى، ولا تتعكس على واقعنا نحن كمسلمين إلا بصورة قد تكون سلبية، ويبقى فهم نظرتها طريقا لمعرفة الآخر، والانفتاح عليه أكثر.

الهوامش:

- عبد المنعم الحفني. (2000). المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة مصر، ط3/.
- جان بول سارتر. (2008). تعالي الأنا الموجود، التتوير.
- جان بول سارتر. (1964). الوجودية مذهب إنساني، تر: عبد المنعم الحفني ، ط1.
- جان بول سارتر. (2007). مواقف مناهضة للاستعمار، منشورات ANEP
- إبراهيم مصطفى إبراهيم (2000). نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1.
- محمد سلمان حسن (1998). دراسات في الفلسفة الأوروبية، دار علاء الدين، ط1، 1998 - أمل -
- مبروك، فلسفة الوجود، الدار المصرية السعودية، 2005، ص 129.
- إدوار مورويسير. (1978). ترجمة عادل العوا، الفكر الفرنسي المعاصر، منشورات عويدات، ط1.